

<p>شعبة الدراسات العربية وحدة الشعر الحديث الأستاذ عبد الغني حسني</p>	 <p>المعنية بتعدد التخصصات الناجور FACULTÉ PLURIDISCIPLINAIRE DE NADOR</p>	<p>جامعة محمد الأول الكلية المتعددة التخصصات الناظور</p>
---	---	--

حركة الشعر الذاتي

(1) التعريف بالحركة الرومانسية:

اشتقت كلمة "الرومانسية" من الكلمة اللاتينية Roman التي تعني القصة: فقد كانت تعني في القرن الثامن عشر قصص الفروسية، واستعملت في مقابل الأدب الكلاسيكي، ثم انتقل معناها بعد ذلك للدلالة على الأدب الجديد الذي تتجسد فيه العواطف ورفض الواقع والحلم بواقع أفضل، في مقابل الأدب الكلاسيكي الذي كان قائما على محاكاة القديم.

وقد نشأت الرومانسية في أوروبا معاصرة للثورات الاجتماعية، وفي مقدمتها الثورة الفرنسية (1789-1799)، فنتج عن ذلك ارتباطها بالثورة على التقاليد بما فيها التقاليد الأدبية، ودعوتها إلى تحرير الذات الإنسانية من سلطة الإقطاع والكنيسة والسياسة.

ولهذا فإن الحركة الرومانسية التي تسربت من الأدب الغربي إلى الأدب العربي هي في الحقيقة أكثر من حركة أدبية: فهي حركة فكرية تقوم على تمجيد الذات الإنسانية وإعادة الاعتبار إليها، كما تتبنى الثورة على التقاليد التي رسخها العصر الكلاسيكي محتميا بسلطة "العقل" وقوانينه. وقد انعكست هذه المبادئ على مجال الإبداع الأدبي الرومانسي فجاء مرتبطا بالتمرد على تقاليد الكلاسيكية والدعوة إلى التجديد وإلى تمجيد الذات والعاطفة الإنسانية والعودة إلى الطبيعة بوصفها رمزا للصفاء الذي يتجسد فيه صفاء الذات أيضا.

(2) مطران خليل مطران (1871-1949) وبداية الحركة الرومانسية في الشعر العربي الحديث:

مطران خليل مطران الملقب بشاعر القطرين شاعر لبناني هاجر إلى مصر بسبب قصيدة ثورية قالها في انتقاد الحكم العثماني، ليستقر بها كشأن كثير من المثقفين ورجال الأعمال الملقين بشوام مصر، وكان يتقن اللغتين العربية والفرنسية، فساهم ذلك في انفتاحه على الأدب الفرنسي الذي كان مهذا من مهود الرومانسية الغربية مع أدياء أمثال فيكتور هوجو وشاتوبريان ولامارتين...

وقد بدأ مطران تجربته شاعرا إحيائيا مرتبطا بقضايا المجتمع ومستلهما أساليب القدماء في التعبير، قبل أن يتحول إلى تبني دعوة التجديد والثورة على تقاليد الكتابة. وقد جعل ذلك عددا من الباحثين يعدونه رائدا للرومانسية العربية. وهو ما يخالفه العقاد الذي يرفض تأثير الشاميين في نشأة المذهب الرومانسي في مصر، وذلك في قوله: "والأستاذ مطران علم وحده في جيله، لكنه لم يؤثر بعبارة أو بروحه فيمن أتى بعده من المصريين، لأن هؤلاء كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من

مصدره ويطلعون على الأدب الأوروبي من مصادره الكثيرة، ولاسيما الإنجليزية" (شعراء مصر وبيئاتهم، العقاد).

وقد سار مطران على نهج شعراء عصره في وضع مقدمة لديوانه على شكل "بيان موجز" يبسط فيه أسس مذهبه الشعري القائم على الصدق وعدم التنكر للقديم، وإن كان شعره لا يسير كله على نهج هذا القديم (انظر "بيان موجز" ضمن نصوص حركة الشعر الذاتي)، ليقول في موضع آخر موضحاً ما يسير عليه من تجديد ومخالفة لمذهب الشعراء السابقين: "إن خطة العرب في الشعر لا يجب أن تكون حتماً خطتنا، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا. ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلاً لتصورنا وشعورنا، لا لتصورهم وشعورهم، وإن كان مفرغاً في قوالبهم، محتدياً مذاهبهم اللفظية".

وحاول مطران أن يجسد في شعره هذا التصور الذي يمزج بين الاستجابة لتحولات العصر مع عدم التنكر لأساليب القدماء، فجاء هذا الشعر ليمثل مرحلة وسطى بين الحركتين الإحيائية والرومانسية، بمزجه بين مقومات الكتابة القديمة وما يتطلبه العصر من تجديد. فكان من أبرز مظاهر التجديد لديه: اهتمامه بموضوع الطبيعة وبالنزعة القصصية في الشعر. وقد أثر توجهه نحو الطبيعة في الشعراء المصريين الآخرين الذين تبنا توجه الرومانسي أمثال أحمد زكي أبي شادي وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وعبد الرحمن شكري.

3) مدارس الحركة الرومانسية

إذا كانت حركة الإحياء، كما تمت الإشارة إلى ذلك، حركة جماعية ساهم فيها عدد من الشعراء الذين يشتركون في مجموعة من أسس الكتابة الشعرية، فإن الحركة الرومانسية قد رسخت هذا التوجه الجماعي نحو التطوير، فكانت أول حركة تحديثية يتبلور فيها مفهوم الجماعة الشعرية. وقد ساهمت الجماعات التي نشأت في ظل هذه الحركة بنصيب وافر في وضع قواعد مشتركة للإبداع، شكلت في عمومها خصائص للحركة الرومانسية العربية. وتمثل الجماعات أو المدارس الشعرية التي قادت هذه الحركة في ثلاثة هي: مدرسة المهجر الأمريكي ومدرسة الديوان ومدرسة أبولو.

أولاً: مدرسة المهجر الأمريكي:

نشأت على يد عدد من الشعراء العرب الذين هاجروا إلى القارة الأمريكية. ويمتاز بالانفتاح لتأثر رواهه بالأفكار الغربية عن الشعر، كما أن حياة المهجر ساهمت في شيوع المعاني الذاتية المعبرة عن الحزن والوحدة في شعرهم. وتنقسم هذه المدرسة إلى: مهجر جنوبي ومهجر شمالي.

وعلى الرغم مما يشترك فيه شعراء المهجر من تعبير عن الوجدان، فإن بينهما اختلافات يمكن إجمالها في هيمنة النزعة الإنسانية عند الشماليين في مقابل النزعة القومية عند الجنوبيين، وجرأة الشماليين في التجديد وفي مزج الفلسفة بالشعر، مع كون شعراء المهجر الجنوبي أكثر إنتاجاً للشعر.

1- المهجر الجنوبي: كان أعلامه من الشعراء الذين هاجروا إلى بلدان أمريكا الجنوبية كالشقيقتين فوزي وشفيق المعلوف ورشيد سليم الخوري ونظير زيتون وجورج صيدح وإلياس فرحات. وقد تجمع هؤلاء الشعراء في جمعية أطلقوا عليها اسم "العصبة الأندلسية" التي أسسها ميشال معلوف في ساو باولو بالبرازيل سنة 1933. وعلى الرغم من الإنتاج الشعري الغزير الذي خلفه شعراء المهجر الجنوبي فإنه لم يقدم شيئا كبيرا في مجال تجديد الشعر ولم يكن في مستوى التأثير الذي مارسه شعراء المهجر الشمالي.

2- المهجر الشمالي: ضم الشعراء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة أمثال: أمين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة وندرة حداد ورشيد أيوب. وقد تجمع هؤلاء الشعراء في جمعية "الرابطة القلمية" التي أسسها سنة 1920 بنيويورك نخبة من الشعراء أبرزهم: جبران خليل جبران ميخائيل نعيمة وندرة حداد ورشيد أيوب وإيليا أبو ماضي، وانتخبوا جبران رئيسا لها. وجعلت الرابطة من بين أهدافها: خدمة اللغة العربية وتوحيد نظرة المهجريين إلى الشعر وإلى قضية التجديد. وقد أبدع شعراء الرابطة في كتابة الشعر والنثر، مع انقسام كتاباتهم النثرية إلى: قسم نقدي يقدم تصورا عن الشعر (ككتاب الغربال لنعيمة) وقسم فني إبداعي تمثله قصيدة النثر التي اشتهر بها عدد من الشعراء أبرزهم: جبران وأمين الريحاني.

وقد كان **أمين الريحاني** رائدا لقصيدة النثر في الأدب العربي، حيث تأثرت دعوته بالشعر الغربي، حتى لقب بأبي الشعر المنثور (انظر نصه حول الشعر المنثور)، كما عرف بدعته إلى التجديد وحملته على التقليد في الأدب والحياة وعلى الرؤية المأساوية التي شاعت عند كثير من الشعراء الرومانسيين.

وكان **جبران** ينطلق أيضا من هذا التوجه نحو التجديد والثورة على التقاليد، يساعده في ذلك العامل الجغرافي المتمثل في البعد عن حراس الثقافة التقليدية من أمثال الرافعي الذين كان لهم موقف معارض لما كان الرومانسيون المصريون يدعون إليه من تجديد. ومن ثمة ساهم جبران بقدر كبير في تجديد الشعر العربي الحديث، فتنوعت كتاباته الإبداعية بين الشعر والقصة والمقالة والموعظة والمسرحية وقصيدة النثر، ليكون أكثر ما كتبه نثرا، كما كان أدبه مثالا للتعبير عن العقيدة المسيحية (بجانب ميخائيل نعيمة) حيث تأثرت كتاباته النثرية بأسلوب الكتاب المقدس.

وجاء شعره نموذجا للتجديد والخروج عن نمط الكتابة الإحيائية على المستويين المضموني والفني:

فعلى مستوى المضمون كان من أبرز الشعراء الذين جسدوا مفهوم وحدة الوجود الذي يعني توحيد الإنسان بالطبيعة والكون، واتخاذ التأمل في الذات وسيلة لمعرفة الوجود. وهو ما يمثل تجديدا في موقف الشاعر من الطبيعة التي لم تعد فقط مصدرا للجمال الظاهر، بل صارت مكمنا لأسرار الوجود ومصدرا للفطرة التي لم تلوثها حياة الإنسان. ومن هنا كان ارتباطه بالطبيعة سببا في جعل شعره مطبوعا بموضوع الثنائيات التي تحوم حول الخير الذي تمثله الطبيعة والشر الذي يمثله الإنسان. وهو ما يتجلى بشكل واضح في قصيدة "المواكب" التي يقابل فيها الشاعر بين العالمين مفضلا للجوء إلى الطبيعة مكمنا الفطرة والنقاء.

وكان جبران، بالإضافة إلى ما ذُكر من تجديد في المضمون الذاتي المرتبط بالطبيعة، من أكثر الشعراء الرومانسيين تجسيدا للتفلسف في الشعر، إذ جعله وسيلة للتأمل في الوجود وفي قيمة الإنسان وقضايا المصير. هذا بجانب شعراء آخرين أبرزهم: ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي.

وعلى المستوى الفني مثل جبران نموذجا للثورة على اللغة التقليدية التي امتاز بها شعر الإحياء. وقد عبر عن نزعة التجديدية تلك في مقالته (لكم لغتكم ولي لغتي) التي دعا فيها الشعراء إلى التحرر من لغة القدماء وابتداع لغة بسيطة عفوية لا تكلف فيها، تستجيب للذات وهمومها. وبذلك جاءت لغة قصائده ممتازة بخاصية البساطة والبعد عن التعقيد، فكان ذلك من أهم مظاهر التجديد التي جسدها. أما الجانب الإيقاعي فقد حافظ فيه عموما على قواعد العروض ولم يحقق تجديدا إلا في تنوع القوافي المرتبط بنظام المقاطع، كغيره من الشعراء الرومانسيين.

وعبر **ميخائيل نعيمة** عن التوجه الرومانسي عن طريق التأمل في الذات والكون وإلغاء العقل، وجعل غاية الشعر هي التعبير عن النفس. وله آراء نقدية في الشعر والأدب، يدافع من خلالها عن التجديد ويثور على النزعة التقليدية في اللغة والإيقاع، جمعها في كتاب "الغربال".

ثانيا: جماعة الديوان

هي جماعة مصرية أسسها عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري وإبراهيم عبد القادر المازني. وتنسب إلى كتاب "الديوان في الأدب والنقد" الذي أصدره كل من العقاد والمازني سنة 1921، وجعلا غايته تجديد الشعر والانتقال به إلى عهد جديد. وقد استفاد شعراء الديوان في كتاباتهم النقدية من النقد الغربي والتقت حول فكرة التجديد وضرورة تجاوز النموذج الإحيائي الذي كان يجسده أحمد شوقي. ومن ثم جعل العقاد من هجومه العنيف على شوقي ومذهبه وسيلة للإقناع بمذهبه الجديد الذي يرتبط فيه الشعر بالصدق في التعبير عن النفس ومجارة العصر والبعد عن التقليد الذي كان شوقي يمثله بكثرة معارضاته. وقد أشار العقاد في تقديمه لديوان المازني إلى أبرز مظاهر التجديد التي يمتاز بها شعر هذه المدرسة والمتمثل في تجديد القوافي عن طريق تنويعها وإرسالها، إضافة تجديده في المعاني واللغة.

لكن المتأمل لما أنجزه شعراء هذه المدرسة يلاحظ أن أهم ما حققوه يتمثل في الموضوع الذاتي والتعبير عن وتنوع القوافي ضمن النظام المقطعي، مع الاحتفال بعنصر الخيال والصور الشعرية واللغة المجازية.

ثالثا: جماعة أبولو

تنسب إلى مجلة أبولو التي أسسها أحمد زكي أبو شادي سنة 1932. وقد اختارت هذه الجماعة أحمد شوقي أول رئيس لها، لكنها رفعت شعار التجديد في الشعر، فأدى ذلك إلى تعرضها لهجوم عنيف من جبهتين هما: جبهة المحافظين الراضين للتقليد، وجبهة الديوان التي كان يتزعمها العقاد، فانهى بها الأمر إلى التوقف عن الصدور بعد عامين فقط من صدور أول عدد منها.

أبرز روادها: أحمد زكي أبو شادي وأبو القاسم الشابي وعبد المعطي الهمشري وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي.

مارس شعراؤها التجديد الشعري في مختلف مستوياته، حيث ألف **أبو شادي** فن الأوبرا، متأثرا فيه بالثقافة الإنجليزية لإقامته في بريطانيا، كما جرب المزج بين الكتابة الموسيقية والكتابة الشعرية، مثلما فعل في "أوبرا الآلهة"، إضافة إلى بعض محاولاته في الشعر المرسل مثلما فعل أيضا عبد الرحمن شكري والزهاوي.

وأعطى **أبو القاسم الشابي** أهمية للخيال الشعري ودعا إلى الابتعاد عن تصوير مظاهر الأشياء، وإلى الاهتمام بما وراء الظاهر، فعبّر عن ذلك في كتابه "الخيال الشعري عند العرب". أما شعره فقد جاء معبرا عن الوجدان، ممجدا للعاطفة، فتجسد فيه جانبان: جانب يرتبط فيه بالواقع ويحمل روحا ثورية متفائلة، وجانب آخر يعكس حزنا عميقا يصل إلى درجة اليأس الذي يدفعه إلى الانطواء على الذات والهروب إلى الطبيعة من عالم يراه ملوثا. وبذلك يكون قد أضاف إلى المعاني الرومانسية التي رسختها مدرسة المهجر معاني تدل على ارتباطه بواقع الشعب والأمة، فجاءت رومانسيته في جانب منها رومانسية ثورية تصرخ في وجه الظلم والاستبداد، وتربط التحرر في مجال الأدب بتحرر الإنسان من الظلم.

وكان لشعر الشابي نصيب من التجديد الفني يتمثل في بساطة اللغة والمعجم المرتبط بالوجدان والطبيعة والسياسة، إضافة إلى توسيع مجال الخيال بتوظيف الرمز، كما في قصيدته: "هكذا غنى برومثيوس" و"فلسفة الثعبان المقدس"، مع اقتصار التجديد الإيقاعي على تنوع القوافي، كشأن جل الشعراء الرومانسيين.

والخلاصة أن شعر أبولو، مع الشابي خاصة، كان خطوة كبيرة في تجديد الشعر العربي الحديث وربط التجربة الذاتية بواقع الأمة مع الحفاظ على ثوابت الإيقاع الشعري والاقتصار في التجديد على تنوع القوافي.

4) الخصائص العامة للحركة الرومانسية العربية

لقد كانت الحركة الرومانسية حركة تجديدية نشأت بتأثير من الرومانسية الغربية، وتبنت المفاهيم الغربية حول تحديث الشعر. وهو ما تجلّى في كتابة قصيدة النثر وتحطيم وحدة القافية. وقد سار شعراؤها على التقليد الذي أنشأه بعض شعراء الإحياء كالبارودي وشوقي بكتابة مقدمات لدواوينهم يقدمون فيها تصورهم للشعر، أو كتابة هذه المقدمات من قبل شعراء ينتمون إلى الجماعة نفسها (مثلما فعل العقاد في تقديمه لديوان المازني).

غير أن هذه الحركة لم تواكب ثورات اجتماعية تضيء شرعية شعبية على مناداتها بالحرية، كما هو شأن الرومانسية الغربية التي واكبت ثورات أبرزها الثورة الفرنسية. وهذا الأمر جعل مفهوم الثورة فيها مقتصرًا على الإبداع الشعري ومنفصلا عن ثورة الإنسان وتحريره من العبودية والاستبداد والتخلف، فجعلت منتهى غايتها تجاوز المضامين والأشكال والأساليب الفنية للشعر الإحيائي.

ونتيجة لذلك، هيمن على مضامينها الموضوع الذاتي المتعلق بعاطفة الشاعر وعلاقته بالمرأة، وما يعيشه من آلام وأحزان، مع الانفصال عن الواقع الاجتماعي والحديث عن قيم إنسانية عامة كقيمتي الخير والشر وقيمة الجمال، والهروب إلى الطبيعة والانطواء على النفس والتعبير عن اليأس من الحياة. أما المستوى الفني فقد تمكنت من تجديد بعض جوانبه بإعطاء أهمية للخيال والصور الشعرية وتنوع القوافي وتخليص القصيدة من الهيكل القديم الذي ينتقل فيه الشاعر من موضوع لآخر، وتحقيق وحدة الموضوع الذاتي. وظلت محافظة في جوانب أخرى على النموذج القديم للشعر، وخاصة في حفاظها على النظام العروضي.